تأليف

الدكتور أبي مجاهد عبد العزيز بن عبد الفتاح القارئ

الأستاذ المشارك بكلية القرآن الكريم

بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

مكتبة الدار

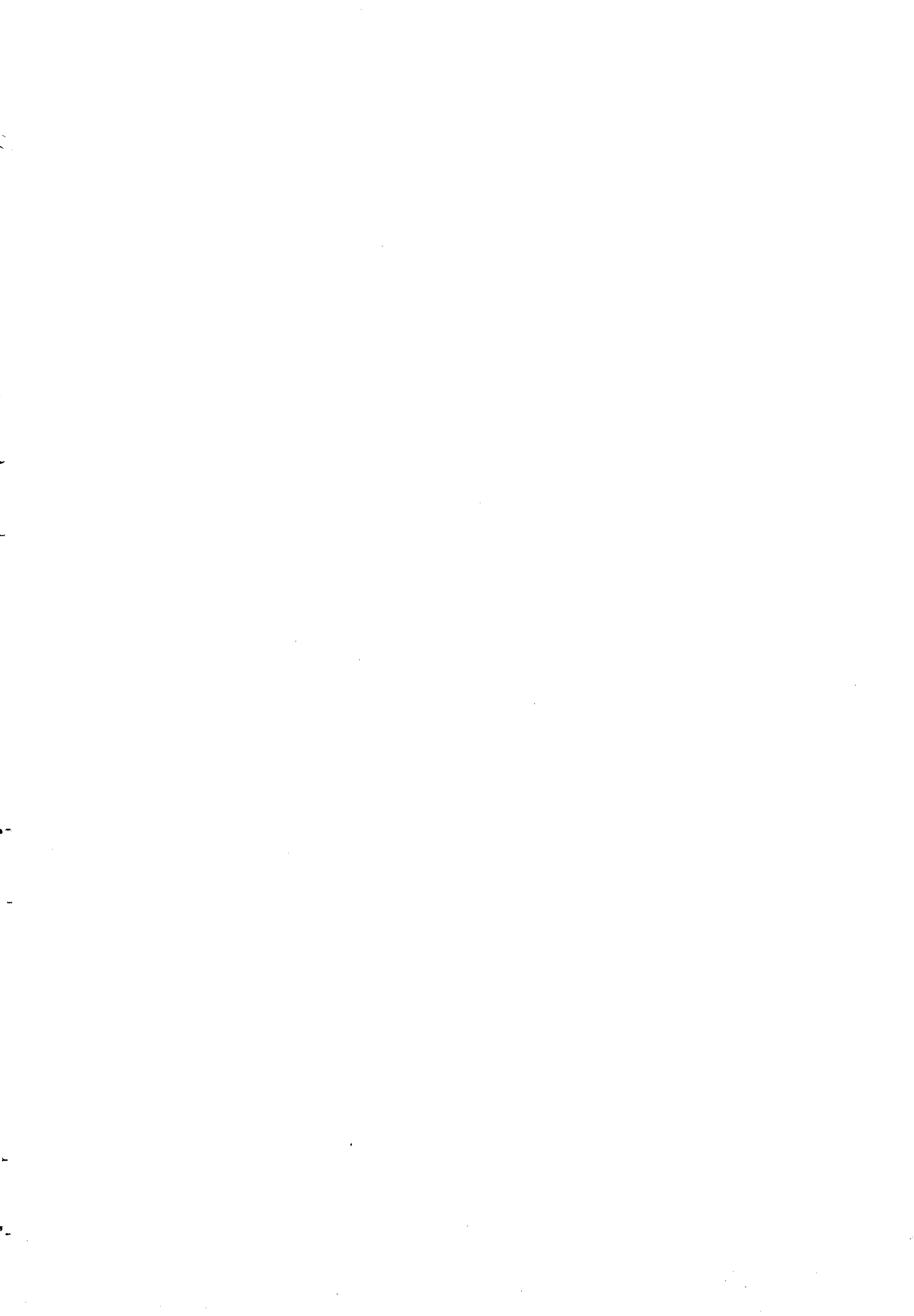

لَوْ فَكَّرَ النَّاسُ كُلُّهُم في هَذِهِ السُّورَةِ لَكَفَتْهُمْ

«الإمام الشافعي»

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين ، والصلاة والسلام على عبده ورسوله محمد، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين:

وبعـــد :

فمنذ أمَدٍ بعيد اختمرتْ لديَّ أفكارٌ عن منهج للتفسير يُستفاد فيه من مناهج المفسرين السابقين، مع تجنُّب ما يغلب على مصنفاتهم في هذا الشأن من الاستطراد في المسائل التي وإن اعتُبِرتْ من وسائل التفسير لكنها وقد غلبت على هذه المصنفات تَشْغَلُ المتدبرَ لكتاب الله عن معانيه الأساسية التي هي من قبيل المقاصد التي أُنزل من أجلها القرآن، إذْ لا مرية في أن القرآن العظيم إنما أُنزل لبيان تلك المقاصد وغَرْس تلك المعاني، فهي محل الاعتبار والتدبر، والغاية من التفسير والتأويل، هذا مع أن آيات القرآن زاخرة بألوان من المعاني الفرعية والمدلولات الظاهرة والخفية، كما أنه غني بأنواعٍ كثيرةٍ من العلوم أوصلها السيوطي إلى أكثر من ثمانين علماً.

وقد بنيتُ هذا المنهج على حقيقةٍ لغوية أشار إليها الشاطبي في الموافقات[1] وهي : أن دلالة الألفاظ على المعاني في العربية نوعان :

أحدهما : **الدلالة الأصلية** : وهي دلالة الألفاظ من جهة كونها ألفاظاً وعبارات مطلقة دالة على معان مطلقة .

والآخر : **الدلالة التابعة** : وهي من جهة كون الألفاظ والعبارات مقيدةً دالةً على معانٍ خادمةٍ للمعاني الأصلية .

وهذا واضح في القرآن الكريم ، فإن المعنى الواحدَ المقصودَ الذي هو **المعنى الأساسي** ، يُعبَّر عنه بألوانٍ مختلفةٍ من أساليب الكلام وأنواع التعبير، ومن خلال هذا التنوع تأتي المعاني الفرعيةُ الخادمةُ ، وحولها تُشَقَّقُ المباحثُ والمسائلُ ، وجميع كتب التفسير حافلةٌ بذلك حتى يكاد يضيع المعنى الأصلي الأساسي في خِضَمِّهِ . ووَصْفُنَا لهذه المعاني بأنها خادمةٌ ، لأنها تخدم المعنى الأصليَّ وتؤيده ، وينبغي ألا تضادَّه أو تُصَادِمَهُ ، فدلالةُ الألفاظ القرآنية على هذه الأنواع من المعاني الخادمة تابعةٌ لدلالتها على المعاني الأساسية التي هي من قبيل المقاصد .

---

(١) الموافقات ٣/٦٦ .

وإذا طلبْتَ مثالاً يوضح لك هذه الحقيقةَ فهاهو أمامك، في هذا التفسير لسورة «العصر»، فقد سلكْتُ فيها منهجاً بنيتُه على تلك الحقيقةِ الهامةِ، واختَرْتُ أن أبدأ هذه المحاولةَ التطبيقيةَ بهذه السورةِ التي هي من أقصر سور القرآن العظيم، لكنها من أغزرها معنىً وموضوعاً.

فالأبوابُ المتعلقةُ بالمعاني الأساسية عَنْوَنْتُ لها بـ(**مقاصد التفسير**) وتتضمن: التعريفَ بالسورة من حيث النزولُ وعددُ الآيات، ثم بعضَ الخصائص التي تُبرِزُ أهميةَ السورة بعنوان (بين يدي السورة) ثم مناسبَتَها من حيث الموضوعُ للسورة التي قبلها والسورة التي بعدها، ثم بيانَ موضوعِ السورةِ، ثم بيانَ المعاني الأساسية بإيجاز.

والأبوابُ المتعلقةُ بالمعاني الخادمةِ والدلالاتِ التابعةِ عنونْتُ لها بـ(**مسائل التفسير**) وتتضمن جميع المباحث المتعلقة بأغراض التفسير ووسائله لغويةً، أو فقهيةً، أو بلاغيةً، وما أُثر من مروياتٍ في التفسير، مع بسط اختلاف مذاهب المفسرين، وبيان اختلاف وجوه المعاني، وغير ذلك.

وأقتصر في المتن على ما كان له وجهٌ من النظر من كل ذلك، وما وجدتْهُ ليس كذلك قد أشير إليه في الهوامش من

باب التنبيه. ثم أختم هذه المسائلَ بفصلٍ عنوانه: (في ظلال الآيات) أو (في ظلال السورة) أبيِّنُ فيه بعض الدروس المستنبطة من الآيات من قبيل التدبر في الدلالات.

وبهذا المنهج أحاول أن أُميِّزَ بين المعاني الأساسية (الأصليةِ) التي هي مقاصدُ القرآن، وبين المعاني الأخرى المتنوعة (الخادمة) وما يتعلق بها من مسائل ومباحث.

فلعلِّي وُفِّقْت في استخدام هذا المنهج، وتحقيق هذه الغاية، فإن كان ذلك فالحمد لله، وستكون الخطوة التالية إن شاء الله تعالى تفسير سورة «الفاتحة»، ثم أتابع تفسير سور «المُفصَّل» قبل أن انتقل إلى سورة البقرة.

وإذا يسَّرَ الله إتمامَ تفسير القرآن على هذا المنهج، ثم أُفْرِدَ منه مايتعلق (بمقاصد التفسير)، فسيكون تفسيراً موجزاً مقتصراً على المعاني الأساسية للقرآن الكريم، مما يجب معرفته على كل متدبر للقرآن، ولو ضُمَّ إليه ذلك الفصل الذي سميته: (في ظلال السورة) أو (في ظلال الآيات) فسيكون أكملَ وأتمَّ، لأنه يحوي أهم مايجب معرفته من فقه الآيات، سواءً كان متعلقاً بفقه التوحيد، أو فقه الأحكام، أو فقه الدعوة، أو فقه السيرة.

أما الباب الذي سميته (مسائل التفسير)، فإنما أردت به بيان منهجي في البحث، وأنني إنما توصلت إلى المعاني الأساسية بعد دراسة المصادر، وأقوال المفسرين، وبعد تحليل المعلومات المتعلقة بالموضوع، فليس ما أتيت به مجرد خواطر أو تأملات، وأردت كذلك أن أتيح للباحثين والدارسين فرصة دراسة هذه المصادر، وتحليل هذه المعلومات وإلا فهذا الباب وإن كان من مقتضيات البحث، لكنه ليس من مقتضيات التفسير حسب المنهج الذي التزمت به.

والله أسألُ أن يوفق ويسدد، ويبارك ويتقبل . . .

اللهم يامُعلِّم آدمَ وإبراهيم علِّمنا ويامُفهِّم سليمانَ فَهِّمْنا . . .

كتبه

د/ أبو مجاهد عبدالعزيز بن عبدالفتاح القارىء

في ٧/ ١/ ١٤١٤هـ بالمدينة النبوية

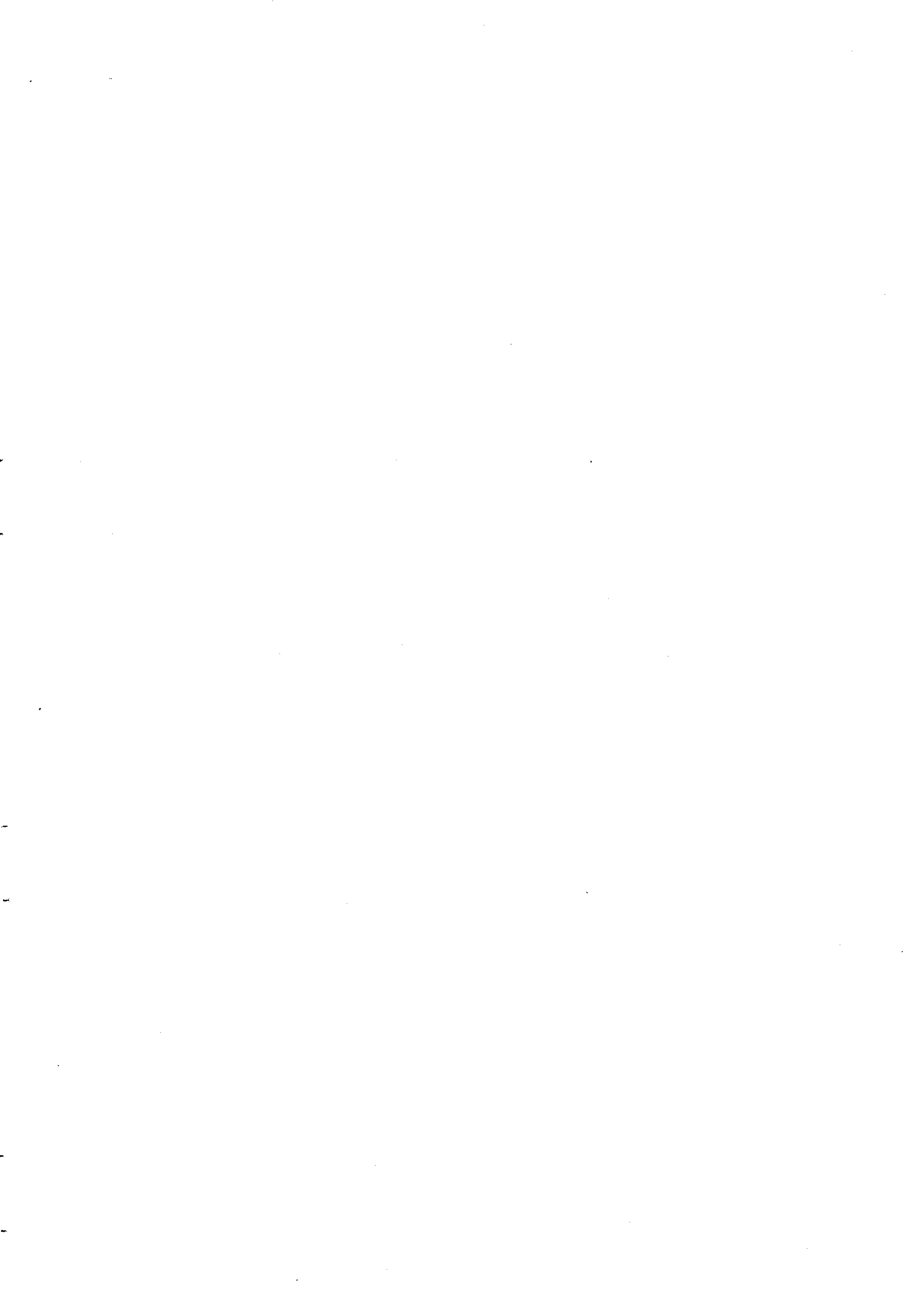

مَقَاصِــدُ التفسِــــير

سورة العصر :

مكية : في قول ابن عباس، وعبدالله بن الزبير، رضي الله عنهم، وعليه الجمهور[1] وعدادها في ترتيب النزول الثالثة عشرة، نزلت بعد سورة الإنشراح وقبل سورة العاديات[2]. وهي ثلاث آيات.

بين يدي السورة :

كان أصحاب رسول الله ﷺ اتخذوا هذه السورة شعاراً لهم، يذكِّر بعضهم بعضاً بها، وبمدلولاتها العظيمة.

فعن أبي مدينة عبدالله بن حصن الدارمي[3] أنه قال : كان الرجلان من أصحاب رسول الله ﷺ إذا التقيا لم يفترقا إلا

---

(١) أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة (والعصر) بمكة (انظر الدر المنثور ٦/ ٣٩٠).
وقيل هي مدنية، قاله مجاهد، وقتادة، ومقاتل.
انظر (البغوي ٤/ ٥٢٢) و(روح المعاني للألوسي ٣٠/ ٢٢٧).

(٢) انظر (الاتقان للسيوطي ١/ ٤٠، ٤١) و(التحرير والتنوير ٣٠/ ٥٢٧).

(٣) هذا هو الصواب في اسمه (انظر الإصابة ٤/ص٦٠/ الترجمة ٤٦٢٩) وذكر الحافظ حديثه هذا، وفي تفسير ابن كثير ورد اسمه (عبيدالله بن حفص) (٤/ ٥٨١) وفي (الدر المنثور ٦/ ٣٩١): عن أبي مليكة الدارمي. وصوابه أبو مدينة.

على أن يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر إلى آخرها، ثم يسلم أحدهما على الآخر[1].

المنـاســـبة :

أربـعُ سورٍ بينهـا تلاحمٌ عجيبٌ وحسنُ اتساقٍ، ففي سورة القارعة بيّنَ أهوالَ يوم القيامة، وانقسامَ الناس فيها إلى سعيد ينجو من العذاب ويحظى بالثواب فهو في حال طيبة،

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط عن طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن عبدالله بن حصن، والبيهقي في الشعب (في الشعبة الثانية والستين).
ومما يروى في فضائل هذه السورة ماذكره الزمخشري في الكشاف (٤/٢٣٢) والثعلبي في تفسيره (ق/١٦٤٢) ونقله عنه ابن عادل الحنبلي في تفسيره (نسخة الأزهر) أن رسول الله ﷺ قال: (من قرأ سورة والعصر غفر الله له، وكان ممن تواصى بالحق وتواصى بالصبر) وزاد الثعلبي: (. . . وكان مع أصحاب رسول الله ﷺ يوم القيامة) وذكره البيضاوي أيضاً، وهو حديث موضوع (انظر تخريج أحاديث البيضاوي للمناوي).
وذكر الرازي قصة سخيفة تبدو عليها آثار الكذب، قال: روي أن امرأة كانت تصيح في سكك المدينة تقول: دلوني على رسول الله ﷺ ، فرآها عليه الصلاة والسلام فسألها، (ماذا حدث؟) فقالت: إن زوجي غاب فزنيت فجاءني ولد من الزنا فألقيت الولد في دن خل فمات، ثم بعت الخل فهل لي من توبة؟ فقال عليه الصلاة والسلام: (أما الزنا فعليك الرجم بسببه، وأما القتل فجزاؤه جهنم، وأما بيع الخل فقد ارتكبت كبيراً، لكن ظننت أنك تركت صلاة العصر) انظر تفسير الفخر الرازي ٣٢/٨٤) قال الألوسي بعد إيراده هذه القصة: ذكر ذلك الإمام وهو لعمري إمام في نقل مثل ذلك مما لا يعول عليه عند أئمة الحديث فإياك والاقتداء به (روح المعاني ٣٠/٢٢٨).

وشقيّ ذهبت أعماله هباءً منثوراً فمصيره إلى النار، ثم في سورة التكـاثـر بين أن من أسبـاب تردِّي الأشقياء في نار جهنم اشتغـالُهم بدنياهم عن دينهم، فمـلأوا موازينهم بالحـطام، وسوَّدُوا صحائفهم بالآثام، ونبه إلى أن الناس سيُسألون عما يعملون، وعن النعيم الـذي يتمتعون به، فالحساب آتٍ، والبعث قريب.

ثم في سورة العصر بيَّنَ حالَ الإنسان ـ جنس الإنسان ـ وأنه غلبت عليه الخسارة، فهو بطبعه ونقصانه يُفني عصره فيما لا ينفعه، إلا القليل، وبينت السورة من هم هؤلاء القليل الذين نجوا من ذلك الخسران، وسعدوا بالربح العظيم في تجارتهم.

ثم في سورة الهمـزة عاد يحذر الإنسـان من الانشغـال بجمـع المال، فهو بطبيعته مجبول على حبه كما بين في سورة العاديات، وشرَحَ هنا عواقب الاستسلام لهذا الميل الغريزي الذي قد ينتهي به إلى «الحطمة» التي هي نار الله الموقدة[1].

---

(١) البحـر المحيط (٨/٥٠٩)، والبرهان في تناسب سور القرآن لابن الزبير الثقفي/ ص٢٣٩، وتنـاسق الـدرر للسيوطي/ ص١٠١، وروح المعـاني للألوسي (٣٠/٢٢٧)، والمراغي (٣٠/٢٣٣).

فسبحان من أَلَّف كلاَمَه هذا التأليف البديع .

موضـوع الســورة :

بينت هذه السورة القصيرة بآياتها الثلاث طريق النجاة والفـلاح ، والمنهـج الـذي يجب أن يتبعـه مريدوا الغايتين ، وأوجزت معالم هذا المنهج في أربعة أمور : الإيمان ، والعمل الصالح ، والدعوة إلى الدين الحق ، والصبر والثبات عليه .

وكل من أخطأ هذا المنهج أو غفل عنه فإنه هالك ، كما هو حال أغلب الناس على مر العصور.

وهذا المعنى هو موضوع سور القرآن كلها ، إلا أنه يأتي بألوان مختلفة من البيان ، فكل سورة تقرره بأسلوب ، أو تشرح لوازمه ومتعلقاته بلون من ألوان البيان .

وهنا قررت السورة نفس الموضوع بإيجاز بليغ ، وأسلوب جامع دقيق ، كما هو الشأن في السور المكية[١] .

---

(١) اختلفت عبارات المفسرين الذين يُعنون عادة بمثل هذا الفصل ، وبعضهم يغلب عليه التكلف ، كالبقاعي في مصاعد النظر (٢٤٦/٣) فإنه عند تقرير مقصـود هذه السـورة ذكـر أنها دلت على تفضيل نوع الإنسـان على باقي المخلوقات ، وهذا المعنى غير واضح ، بل العجب منه كيف يستدل بسورة تقرر أن هذا الإنسان غارق في الخسران على تفضيله . . =

المعـاني الأساسيــة :

﴿وَٱلْعَصْرِ﴾ : هذا قسمٌ أقسم الله تعالى به، والعَصْرُ هو الدهر، والمراد الزمانُ كلُّه أو بعضُه، يدخل فيه الليلُ والنهارُ والأبـردان، وعُمُـر الإنسـان، ووقتُ صلاةِ العصر، وزمانُ النبي ﷺ وأمتِهِ، وفي هذا القَسَم تنبيهٌ إلى ما في الزمان من

= ثم تمادى في هذا المعنى فقرر أن الناجين من بني الإنسان هم خلاصة الكون ولباب الوجود، واستنبط ذلك من اسم (العصر) الذي أطلق على السورة، ومن معاني هذه اللفظة لغة: استخراج خلاصة الشيء، قال: «فإن العصر يخلص روح المعصـور ويميز صفـاوته» وهذا المعنى فيه بعد وتكلف، فأين (العصر) بمعنى الزمان ـ كله أو جزء منه ـ من العصر بالمعنى الذي ذهب إليه.

وأحسن منـه في بيان هذا الفصـل الشيخ ابن عاشـور في التحـرير والتنـوير (٥٢٧/٣٠)، وأحسن من ابن عاشور سيد قطب رحمه الله (٣٩٦٤/٦) فهو كعادته يجلِّي في هذه المعاني قال في (الظلال): «في هذه السورة القصيرة ذات الآيات الثـلاث يتمثل منهج كامل للبشرية كما يريدها الإسلام، وتبرز معالم التصـور الإيماني بحقيقتـه الكبيرة الشاملة في أوضح وأدق صورة، إنها تضع الـدستـور الإسـلامي كله في كلمات قصـار، وتصف الأمة المسلمة حقيقتها ووظيفتها في آية واحدة هي الآية الثالثة من السورة، وهذا هو الإعجاز الذي لايقدر عليه إلا الله، والحقيقة الضخمة التي تقررها هذه السورة بمجموعها هي هذه: إنه على امتداد الزمان في جميع الأعصار، وامتداد الإنسان في جميع الأدهار ليس هنالك إلا منهج واحد رابح وطريق واحد ناجح، هو ذلك المنهج الذي ترسم السـورة حدوده، وهـو هذا الـطريق الذي تصف السورة معالمه، وكل ما وراء ذلك ضياع وخسار. .

إنه الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر».

عجائب قدرة الله وآيات خلقه، فهو بتعاقب ليله ونهاره، وانصرام أيامه ولياليه، وشهوره ودهوره[1]، محلٌّ للحوادث، ثم ما يخص الإنسان منه وهو عمره هو فرصة أُوتِيَهَا، ونعمةٌ أنعم الله بها عليه، وهو وعاءٌ لأفعاله خيراً كانت أم شراً، وهو رأسُ مالِهِ إما أن يستفيد منه ويستثمره في تجارة رابحة، وإما أن يضيعه، ورأس المال هذا يفوت ولا يبقى فهو في تناقصٍ مستمرٍ، والعجيب فيه أن كل يوم يزيد فيه هو في الحقيقة نقصٌ منه.

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ : هذا هو المُقْسَمُ عليه، وهو حقيقة هامة مخيفة : إن جنس الإنسان الغالب على حاله الخسران، فهو في تجارة رأسُ مالِهِ فيها عُمُرُه، والغالب أنه يضيعه فيما يضره ولا ينفعه، لذا تجد أكثرَ الناس هالكين، بسبب انشغالهم بحب الدنيا، واستغراقهم في طلبها، يصرفون أعمارهم في مباغيهم التي لا ينتفعون بها، فهم مشغولون بالفاني عن الباقي ومشتغلون بالضار ولأهونَ عن النافع، ولهذا حَقَّ عليهم الخسار بل أحاط بهم.

---

(١) الدهر هو السنة وهذا من معانيه وسيأتي.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ. . . ﴾ : أي لا يسلم من ذلك الحكم العام على جنس الإنسان بالخسران إلا القليل، وهم المؤمنون الذين حققوا الإيمانَ والإسلامَ، فالإيمانُ هو التصديق بالأركان الستة، والإسلامُ هو العملُ الصالحُ، ويأتي على رأسه العمل بالأركان الخمسة، فمن جمع بين الاعتقاد الصحيح، والعمل الصالح ـ أي الموافق لسنة رسول الله ﷺ مع الإخلاص بأن يكون العمل لوجه الله تعالى لا يريد به رياءً ولا سمعة ولا التَّقرُّبَ بِهِ إلى أحدٍ من المخلوقين ـ فقد أدرك طريقَ النجاة وسَلِمَ من الخسران.

﴿وَتَوَاصَوْا بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِٱلصَّبْرِ﴾ : من أعمالهم الصالحة أن يوصي بعضهم بعضاً بالتمسك بالدين الحق الذي هو الإسلام، وبدعوة الناس إليه، فهم جماعةٌ متعاونون متعاضدون على ذلك، ويوصي بعضهم بعضاً بالثبات على ذلك والصبر على الطاعة، وعلى القيام بأمر الله، والدعوة إلى دينه، وعلى تحمل الأذى في سبيله، راضين باطناً وظاهراً بما يُقدِّرُهُ سبحانه عليهم.

فأهل النجاة من الدمار والسلامة من الخسار إنما ظفروا

بالفوز والفلاح، وربحوا في تجارتهم، بتحقيقهم ذلك على مرتبتين :

أولاهما : تكميلهم لأنفسهم بالإيمان والعمل الصالح، **والأخرى** تكميلهم لغيرهم بالدعوة إلى الإسلام، والثبات والصبر عليه.

مَسَائِلُ التفسيرِ

﴿وَٱلْعَصْـــرِ﴾ هذه قراءة العشرة، وهي القراءة المتواترة، وروي في الشاذ (والعَصِر) بكسر الصاد، ومثلها (بالصبِر) بكسر الباء، قرأها سلام[1] وهارون بن موسى[2] عن أبي عمرو قال ابن عطية: وهذا لا يجوز إلا في الوقف على نقل الحركة، وروي عن أبي عمرو (بالصبِر) بكسر الباء إشماماً[3] وهذا أيضاً لا يصح إلا في الوقف.

ومثله (والفجر) (والوتر) كل ذلك بكسر ما قبل الساكن.

قال ابن خالويه[4]: «والصبر: بنقل حركة الراء إلى الباء، لئلا يحتاج أن يأتي ببعض الحركة في الوقف ولا إلى أن يسكن، فجمع بين ساكنين وذلك لغة متتابعة وليست بشاذة. بل مستفيضة، وذلك دلالة على الإعراب وانفصال من التقاء

---

(١) سلام بن سليمان الطويل أبو المنذر المزني مولاهم البصري، توفي (١٧١هـ) (غاية النهاية ١/ ٣٠٩).

(٢) هارون بن موسى أبو عبدالله الأعور العتكي البصري، توفي قبل المائتين (غاية ٢/ ٣٤٨).

(٣) الإشمام هو في عرف القراء خلط حرف بحرف أو حركة بأخرى (انظر إبراز المعاني لأبي شامة/ ص٥٧).

(٤) الحسين بن أحمد بن حمدان أبو عبدالله المعروف بابن خالويه الهمذاني النحوي، ت(٣٧٠هـ) (بغية الوعاة ١/ ٥٢٩).

الساكنين وتأدية حق الموقوف عليه من السكون»[1]، وقال : وهذا كما قال :

أنــا جريرٌ كنــيتي أبــوعَـمِــرْو   أضربُ بالـسيف وسَعْــدِي في العَصِرْ[2]

قلت : ومن ذلك قولهم :

. . .   . واصطفافاً بالرِّجِلْ[3]

يريد : بالرِّجْل.

وقرأ الأعرج[4]، وزيد بن علي[5]، وهارون عن أبي بكر عن عاصم : «لفي خُسُر» بضم السين، وعامة القراء بإسكانها[6].

---

(١) عزاه إليه ابن عادل الحنبلي في تفسيره (نسخة الأزهر)، وعزاه أبو حيان في البحر (٨/ ٥٠٩) والألوسي في روح المعاني (٣٠/ ٢٢٩) إلى صاحب (اللوامح) وهو أبو الفضل الرازي، وانظر (المحرر الوجيز لابن عطية (١٦/ ٣٦٢).

(٢) مختصر في شواذ القرآن (ص١٧٩) والبيت عند ابن عادل: . . وسعد في القصر، وانظر (البحر المحيط ٨/ ٥٠٩)

(٣) ابن عادل الحنبلي (نسخة الأزهر).

(٤) لعله إذا أطلق أريد به عبدالرحمن بن هرمز الأعرج المدني، توفي سنة (١١٧هـ) بالاسكندرية (غاية ١/ ٣٨١) والأعرج أيضاً حميد بن قيس المكي.

(٥) زيد بن علي بن أحمد أبو القاسم العجلي الكوفي، توفي سنة (٣٥٨هـ) (غاية ١/ ٢٩٨).

(٦) مختصر شواذ القرآن لابن خالويه/ ص١٧٩، والمحرر الوجيز (١٦/ ٣٦٢)، والبحر المحيط (٨/ ٥٠٩).

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه كان يقرأ (والعصر ونوائب الدهر إن الإنسان لفي خسر وإنه فيه إلى آخر الدهر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات. . . الخ) ورويت عن ابن مسعود أيضاً رضي الله عنه[1].

وفي «العصر» لغات فهي مثلثة العين، والأشهر فتحها، وبضمها وضم الصاد لغة، قال امرؤ القيس:

. . . . وهلْ يَعِمَنْ مَنْ كان في العُصُرِ الخَالي[2].

وفي معنى (العصر) أقوال:

١ ـ الدهــر: وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما[3].

---

(١) أخرجه الفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير (هكذا ذكر السيوطي)، وابن المنذر، وابن الأنباري في المصاحف، والحاكم (٢/ ٥٣٤).
ورواه عن إبراهيم عن ابن مسعود عبدُ بن حميد، انظر الدر المنثور (٦/ ٣٩٢).
قال الفخر الرازي (٣٢/ ٨٤): «. . إلا أنا نقول هذا مفسد للصلاة فلا نقول إنه قرأه قرآناً بل تفسيراً».
وانظر ابن خالويه (ص١٧٩).

(٢) ديوان امرىء القيس بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (ص٢٧) طبعة دار المعارف بمصر ١٩٦٤م.
وتكملة البيت:
«ألا عِمْ صباحاً أيها الطللُ البالي وهل يعمن من كان في العصر الخالي»

(٣) ابن جرير (٣٠/ ١٢٨)، البغوي (٤/ ٥٢٢)، ابن عطية (١٦/ ٣٦١)، القرطبي (٢٠/ ١٧٩) أبو حيان (٨/ ٥٠٩).

ومنه قول الشاعر :

سبيلُ الهَوَى وَعْرٌ وبَحْر الهَوَى غَمْرُ ويومُ الهـوَى شهرٌ وشهرُ الهَوَى دَهْرُ[1]

والدهر هو الزمان كله الذي تقع فيه حركات بني آدم من خير وشر[2] أقسم به لما فيه من دلائل القدرة على الخالق سبحانه، فهو مشتمل على الأعاجيب، فيه السراء والضراء، والصحة والسقم، والغنى والفقر، وفي ذلك تنبيه للإنسان على أن هذا الزمان ظرف لأعماله، وأنه يمر وينقضي سريعاً، إذا لم يستفد منه ضاع عليه، فكل يوم مضى نقص في العمر :

إنّـا لَنَـفْـرحُ بالأيام نَقْـطعـهـا وكـلُّ يومٍ مَضَى نَقْصٌ من الأَجَلِ[3]

فالزمان بحركته الدائبة يجري بالإنسان نحو نهايته المحتومة، وإن كان لا يحس بذلك :

وأَرَى الـزمـانَ سفينةً تَجْري بِنَا نَحْـوَ المنونِ وَلاَنَرَى حَرَكاتِهِ[4]

والزمان بتعاقب أيامه ولياليه عبرة لمن أراد أن يعتبر، وواعظ لمن أراد أن يتعظ : ﴿**وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً**﴾[5].

---

(١) وقيل أراد بالدهر هنا (عاماً) (انظر ابن العربي ٤ /١٩٦٧).

(٢) ابن كثير ٤ /٥٨١.

(٣) الرازي ٣٢ /٨٤.

(٤) أضواء البيان ٩ /٤٩١.

(٥) الفرقان : ٦٢.

والـزمـان فرصة يضيعها الإنسان غالباً، وهذا هو حال أهل الخسران، وهو من أصول النعم، ولكن أكثر الناس لا يشكرون.

والعجيب أن عصر الإنسان ـ الذي هو عمره ـ مهما طال لا يفيده منه إلا لحظة الهداية، فلو ضيع الإنسان ألف سنة في الشقاوة ثم تاب واهتدى في اللمحة الأخيرة من العمر دخل الجنة بسببها وبقي فيها أبد الآباد، ولو أمضى ألف سنة في هداية وأعـمال صالحات، ثم نُكِس في تلك اللمحة الأخيرة وكفـر ذهبت أعـماله كلها هباء منثوراً وضاع عليه كل ذلك العُمُر[1] ومن هنا يعلم الإنسان أن أيامه ولياليه لا قيمة لها إلا ما كان منها معموراً بالهداية، فليتنبه لذلك، وليدرك نفسه ولو في اللحظة الأخيرة.

وإذا ما فرط في ذلك فلا يلومن الدهر والزمان، إنما هما كالوعاء يملؤه بما يشاء، فلا يلومن إلا نفسه :

نعيبُ زمانَنَا والعيبُ فِينَا ... وما لِزَمانِنَا عيبٌ سِوَانَا

وهـذا من حِكَم النهي عن سب الدهر، كما ورد في

---

(١) الرازي ٣٢ : ٨٤ .

الحديث : (لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر)[1].

ولكن إذا كان المراد بالعصر هو الدهر فلِمَ صرف التعبير في هذه السورة من الدهر إلى العصر؟.

قالوا : لأن الملحد مولع بذكر (الدهر) وتعظيمه ونسبة التأثير والتدبير إليه، فأعرض تعالى عن ذكر الدهر هنا استخفافاً بهذا الإلحاد، مع أنه ذكره في سورة ﴿**هل أتى**﴾ لأنه هناك في معرض الرد على الدهريين[2].

٢ ـ **هو الليل والنهار** : قاله ابن كيسان[3]، أو العصر بكرة والعصر عشية[4]، ومنه قول حميد بن ثور :

وَلَنْ يلْبثَ العَصْرانِ يومٌ وليلةٌ ... إذا طَلَبَا أنْ يُدْرِكَا مَا تَيَمَّمَا[5]

---

(١) مسلم في كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها من صحيحه (ص١٧٦٢) وفي رواية له: (قال الله عز وجل: يسب ابن آدم الدهر وأنا الدهر بيدي الليل والنهار) وفي لفظ: (أقلِّب الليل والنهار) وفي لفظ: (أقلِّب ليله ونهاره فإذا شئت قبضتهما).

(٢) الرازي (٣٢/٨٤)، وانظر الخازن (٧/٢٣٩) وأضواء البيان (٩/٤٩١).

(٣) انظر البغوي (٤/٥٢٢). وابن كيسان هو محمد بن أحمد بن إبراهيم أبو الحسن النحوي توفي سنة (٢٢٠) طبقات المفسرين للداودي (٢/٥٣).

(٤) ابن عطية (١٦/٣٦١).

(٥) ابن عطية (١٦/٣٦١) و(البحر المحيط ٨/٥٠٩).

ويقال لهما الأبردان، ويقال لهما العصران، قال الشاعر:

وأمطله العصرين حتى يملني ويرضى بنصف الدين والأنف راغم[1]

ومنه الحديث: (حافظْ على العَصْرين) قيل: وما العصران؟ قال: (صَلاَةٌ قبل طلوعِ الشمسِ وَصَلاةٌ قبل غروبها)[2].

قال ابن الأثير: «يريد صلاة الفجر وصلاة العصر سماهما العصرين لأنهما يقعان في طرفي العصرين وهما الليل والنهار، والأشبه أنه غلب أحد الاسمين على الآخر كالعمرين لأبي بكر وعمر، والقمرين للشمس والقمر»[3].

---

(١) هذا البيت لعبدالله بن الزبير الأسدي، قال الصاغاني: «والصواب في الرواية: «. . . ويرضى بنصف الدين في غير نائل» انظر تاج العروس (٣٠/٤٠٤).

(٢) رواه أبو داود في سننه (انظر معالم السنن للخطابي ١/١٣٤) عن فضالة بن عبدالله الليثي وهو حديث صحيح (انظر فيض القدير للمناوي ٣/٣٦٧).

ومما روي في هذا حديث (من صلى العصرين دخل الجنة) هكذا أورده ابن الأثير في النهاية. ولفظ البخاري ومسلم (من صلى البَرْدين دخل الجنة) انظر فتح الباري (٢/٥٣) وصحيح مسلم (ص ٤٤٠) والمعلم بفوائد مسلم (١/٢٩٠).

ومنه حديث علي: (ذكرهم بأيام الله واجلس لهم العصرين) انظر النهاية (٣/٢٤٦) وتاج العروس (٣/٤٠٤).

(٣) النهاية (٣/٢٤٦).

٣ ـ «**العصر**» **هو العشي**، أو آخر النهار، وهو ما بين الزوال والغروب، قاله الحسن[١]، وقتادة[٢]، ومطرف[٣].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هو ما قبل مغيب الشمس من العشي[٤].

قال الشاعر:

تَروَّحْ بِنَا ياعَمْرُو قَدْ قَصُرَ العَصْرُ

وفي الروحة الأُولَى الغنيمةُ والأَجْرُ[٥]

قال بعض المفسرين[٦]: أقسم الله تعالى بالعصر كما أقسم بالضحى لما فيهما جميعاً من دلائل القدرة، فإن كل بُكْرة

---

(١) الحسن بن أبي الحسن البصري، توفي سنة (١١٠هـ)، له ترجمة في سير أعلام النبلاء (٤/٥٦٣).

(٢) قتادة بن دعامة السدوسي، توفي سنة (١١٨هـ) ترجمته في سير أعلام النبلاء (٥/٢٦٩).

(٣) ابن العربي (٤/٩٦٧)، ومطرف هو ابن عبدالله الشخير العامري البصري، توفي سنة (٨٦هـ) (سير أعلام النبلاء ٤/١٨٧).

(٤) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٢/٣٩٤)، وابن جرير (٣٠/١٨٧)، وابن المنذر، وابن أبي حاتم (الدر المنثور ٦/٣٩٢)، وانظر البغوي (٤/٥٢٢).

(٥) كذا في القرطبي (٢٠/١٧٩) وعند ابن عادل: «.. يروح بنا عمرو وقد قصر العصر..» فزاد واواً وبنى الفعل على المضارع، وفي تاج العروس: «.. تروَّحْ بنا ياعمرو وقد قصر العصر..» (٣/٤٠٤).

(٦) الرازي (٣٢/٨٥).

كأنها القيامة، يخرجون من القبور، وتصير الأموات أحياء، ويقام الموازين، وكل عشية تشبه تخريب الدنيا بالصعق والموت، وكل واحد من هاتين الحالتين شاهد عدل، ثم إذا لم يحكم الحاكم عقيب الشاهدين عُدَّ خاسراً، فكذا الإنسان الغافل منهما في خسر.

وقال الحسن: إنما أقسم بهذا الوقت تنبيهاً على أن الأسواق قد دنا وقت انقطاعها وانتهاء التجارة والكسب فيها، فإذا لم تكتسب ودخلت الدار وطاف العيال عليك يسألون عن حقهم فحينئذ تخجل فتكون من الخاسرين، فكذا نقول: والعصر، أي عصر الدنيا، قد دنت القيامة وأنت بعد لم تستعد وتعلم أنك غداً تسأل عن النعيم الذي كنت فيه في دنياك وتسأل عن معاملتك مع الخلق، وكل أحد من المظلومين يدعي ما عليك فإذن أنت خاسر ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾[1].

ثم إن هذا الوقت معظم، ولذلك تغلظ اليمين فيه، قال رسول الله ﷺ: (من حلف بعد العصر كاذباً لا يكلمه الله

---

(١) الأنبيـــاء: ١.

ولا ينظر إليه يوم القيامة)[1].

فكما أقسم سبحانه في حق الرابح بالضحى أقسم هنا في حق الخاسر بالعصر فهناك أقسم بالضحى في حق الرابح وبشر الرسول ﷺ أن أمره إلى الإقبال، وهنا في حق الخاسر توعده بأن أَمْرَه إلى الإدبار والخسار، ثم كأنه يقول له: بعض النهار باق، فيحثه على التدارك في البقية الباقية بالتوبة.

٤ ــ **المراد صلاة العصر**: وهي الصلاة الوسطى، قاله مقاتل[2] ويطلق العصر على هذه الصلاة فيكون تعريفه على هذا تعريف العهد وصار علماً بالغلبة، كما هو شأن كثير من أسماء الأجناس المعرفة باللام، مثل العقبة[3].

أقسم تعالى بهذه الصلاة لفضلها، بدليل قوله تعالى: ﴿**حَـافِـظُوا عَلَى ٱلصَّلَوَاتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ**﴾ وهي صلاة العصر كما في مصحف أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها[4].

---

(١) عزاه القرطبي إلى الصحيح (٢٠/١٧٨) وانظر في فتح الباري (٥/٤٣).
(٢) البغوي (٤/٥٢٢).
(٣) ابن عاشور (٣٠/٥٢٩).
(٤) رواه ابن جرير (٥/١٧٣) وأما الذي في مصحف حفصة رضي الله عنها: (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر) كما في ابن جرير، =

وقوله ﷺ : (من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله)[1] .

وهذا التحريض على هذه الصلاة المخصوصة لأن التكليف في أدائها أشق، لتهافت الناس في تجاراتهم ومكاسبهم آخر النهار واشتغالهم بمعايشهم[2] .

وقيل في قوله تعالى : ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ ٱلصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ . .﴾[3] إنها صلاة العصر[4] .

٥ ـ المراد زمان حياته ﷺ وما بعده إلى يوم القيامة، وهذا هو عصر هذه الأمة، مقداره فيما مضى من الزمان مقدار وقت العصر من النهار.

عن سالم بن عبدالله عن أبيه أنه سمع النبي ﷺ يقول (إنما بقاؤكم فيمن سلف قبلكم من الأمم كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس)[5] .

= ويختلف المعنى حسب هذا النص فإن الواو تقتضي أن الصلاة الوسطى غير صلاة العصر.

(١) البخاري انظر الفتح (٢/ ٣٠). (٢) الكشاف (٤/ ٢٣٢).

(٣) المائدة : ١٠٦ . (٤) الرازي (٣٢/ ٨٥).

(٥) البخاري انظر فتح الباري (٢/ ٣٨).

وروي عنه ﷺ أنه قال: (إنما مثلكم ومثل من كان قبلكم مثل رجل استأجر أجيراً فقال: من يعمل من الفجر إلى الظهر بقيراط؟ فعملت اليهود، ثم قال: من يعمل من الظهر إلى العصر بقيراط؟ فعملت النصارى، ثم قال: من يعمل من العصر إلى المغرب بقيراطين؟ فعملتم أنتم، فغضبت اليهود والنصارى وقالوا: نحن أكثر عملاً وأقل أجراً! فقال الله: وهل نقصت من أجركم شيئاً؟ قالوا: لا. قال: فهذا فضلي أوتيه من أشاء، فكنتم أقل عملاً وأكثر أجراً)[1].

٦ ـ **هو على حذف مضاف**، ومعناه: ورب العصر[2].

والراجح: من هذه التفاسير أن نقول: إن المراد الزمان كله أو بعضه، فالأقوال كلها ما عدا الرابع والسادس يدخل بعضها في بعض، فأقسم تعالى بالزمان مطلقاً فيدخل فيه عموم الزمان، ويدخل فيه الليل والنهار، والأبردان، وعمر الإنسان، ووقت صلاة العصر، وزمان النبي ﷺ وأمتِهِ، كل ذلك مقصود لا يُخَصَّص مما شمله اسم الزمان

---

(١) الرازي (٣٢/٨٦)، القرطبي (٢٠/١٧٩)، الألوسي (٣٠/٢٢٨). والحديث في البخاري (انظر الفتح ٢/٣٨).

(٢) البغوي (٤/٥٢٢).

معنى دون معنى، فكل ما لزمه هذا الاسم فهو داخل فيما أقسم به جل ثناؤه[1]، وإن كان هو أظهر في المعنى الأول، ومما يؤيده القراءة الشاذة المروية عن علي بن أبي طالب وعبدالله بن مسعود رضي الله عنهما[2].

ولأن السياق والسباق وما يكتنف هذه السورة قبلها وبعدها، يدل على ذلك، وموضوع السورة سعي الإنسان وعمله وهذان محلهما إما مطلق الزمان الذي هو محل الحوادث، أو جزء منه الذي هو عمر الإنسان[3].

﴿إِنَّ ٱلْإِنْسَـانَ لَفِى خُسْرٍ﴾ : أقسم تعالى بالعصر على هذه الحقيقة : وهي أن جنس الإنسان الغالبُ عليه الخسر، فهذه الجملة جواب القسم، والإنسان اسم جنس، والمراد به العموم، بدليل الاستثناء منه[4]، فالتعريف هنا يراد به الاستغراق.

والخسر والخسران كالكفر والكفران، معناه النقص من

---

(١) ابن جرير (١٨٧/٣٠).
(٢) راجع (ص/٢٣).
(٣) أضواء البيان (٤٩٣/٩).
(٤) ابن عطية (٣٦١/١٦)، الرازي (٨٦/٣٢)، ابن عادل (النسخة الأزهرية)، ابن عاشور (٥٣٠/٣٠)، الشنقيطي (٤٩٤/٩).

رأس المال، والأصل فيه أن يكون في المحسوسات ثم استعمل في المعنويات مجازاً[1].

ونُكِّر الخسر إما للتعظيم، أو يقال للتهويل، أي في خسر عظيم، والذنب إنما يعظم بعظم من في حقه الذنب، أو لأنه وقع في مقابلة النعم العظيمة، وكلا الوجهين حاصلان في ذنب العبد في حق ربه، فلا جرم كان ذلك الذنب في غاية العظم[2].

وقيل إن التنكير للتحقير، ووجهه: إن خسران الإنسان مهما كان هو أحقر وأقل من خسران الشيطان، وفي هذا نوع بشارة للإنسان، كأنه قيل له: إن في خلقي من هو أعصى منك[3].

وقد أَكَّدَ هذه الحقيقة بجملةٍ من المُؤَكِّدات:

أحدها: قوله «لفي» جاء بحرف الظرفية «في» ليفيد أنه مستغرق في الخسران، فهو كالمغمور فيه، حتى صار محيطاً به من كل الجوانب.

---

(١) ابن كمال باشا في تفسير سورة العصر.

(٢) الرازي (٣٢/٨٧)، ابن عادل (النسخة الأزهرية)، الألوسي (٣٠/٢٢٨).

(٣) الرازي (٣٢/٨٧)، ابن عادل (النسخة الأزهرية).

ثانيها : حرف اللام في «لفي خسر».

ثالثها : «إن» التي هي للتأكيد.

﴿**لَفِى خُسْرٍ**﴾ : قيل معناه: لفي غبن، وقال الأخفش[1] : لفي هلكة، وقال الفراء [2] : لفي عقوبة، ومنه قوله تعالى : ﴿**وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْراً**﴾[3] أي انتهى مآلها إلى العقوبة وقيل : لفي شر، وقيل : لفي نقص[4].

والصحيح أن كل ذلك داخل في المعنى المراد.

فيكون معنى الآية : إن الناس جميعهم في خسران من تجاراتهم إلا الصالحين وحدهم، لأنهم اشتروا الآخرة بالدنيا فربحوا وسعدوا، ومن عداهم تجروا خلاف تجارتهم فوقعوا في الخسارة والشقاوة[5].

فهذه الآية قررت أن الأصل في جنس الإنسان

---

(١) هو الأخفش الأوسط سعيد بن مسعدة، توفى سنة (٢١٥هـ) انظر ترجمته في طبقات المفسرين للداودي (١/ ١٨٥).

(٢) الفراء صاحب معاني القرآن هو يحيى بن زياد، توفي سنة (٢٠٧هـ)، ترجمته في الداودي (٢/ ٣٦٦).

(٣) الطلاق : ٩ .

(٤) البغوي (٤/ ٥٢٣) وابن عطية (١٦/ ٣٦١).

(٥) الكشاف (٤/ ٢٣٢).

الخسران، بسبب ظلمه وجهله، ونقصه وضعفه، فإذا ضم إلى ذلك أن الأسباب الداعية إلى الآخرة خفية، مع أن **سعادته في حب الآخرة، والأسباب الداعية إلى الدنيا ظاهرة** مع أن شقاوته في حب الدنيا، وأحيطت الدنيا بالغرائز والشهوات، وحفت طريق الجنة بالمكاره، فصار أكثر الخلق مشتغلين بحب الدنيا مستغرقين في طلبها، يصرفون أعمارهم في مباغيهم التي لا ينتفعون بها، فحق عليهم الخسارة والبوار.

ويمكن أن يقال: إن رأسَ مال الإنسان عُمُرهُ ـ الذي هو عصره المخصوص به ـ، وهذا العمر يفنى ويذهب، فهو في تناقص دائم مع تعاقب الليل والنهار، فرأس ماله ذاهب، ولا يزال مهما عُمِّر في نقص وضعف وتراجع، فكل يوم يزيد هو في الحقيقة نقصان:

زيادة المرء في دنياه نقصان ... وربحه غير محض الخير خسران

قال بعض السلف: تعلمت معنى السورة من بائع الثلج، كان يصيح ويقول: ارحموا من يذوب رأس ماله ارحموا من يذوب رأس ماله. فقلت هذا معنى: ﴿**إِنَّ ٱلْإِنسَانَ لَفِى خُسْرٍ**﴾ يمر به العصر فيمضي عمره ولا يكتسب فإذن هو

خاسر[1].

ومن **لطائف معـاني القرآن** : أنه في سورة التين قال : ﴿**لَقَـدْ خَلَقْنَـا ٱلإِنْسَـانَ فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ**﴾ فدل على أن الابتـداء من الكـمال والانتهـاء إلى النقصان، وهنا في هذه السورة قال : ﴿**إِنَّ ٱلإِنْسَانَ لَفِى خُسْرٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا**﴾ فدل على أن الابتداء من النقصان والانتهاء إلى الكـمال الـذي هو الإيمان، وذلك لأن آيات سورة التين تتعلق بأحوال البدن، والبدن في أوائل العمر هو في أحسن تقويم، ثم كلما اتجه إلى الهرم والشيخوخة انحدر إلى الضعفِ والبِـلَى، وهنا في سورة العصر تتعلق الآيات بأحوال النفس وأفعال الإنسان، والأصل فيهما والغالب عليهما الخسران[2].

ولا يسلم من هذه الخسارة إلا المؤمن العامل، لأنه وإن كان في نقص من الأيام والليالي والدهور، وكان في خسر من دنياه في هرمه وما يقاسيه من عناء هذه الدار الفانية، إلا أن ذلك معفو عنه في جنب فلاحه في الآخرة، وربحه الذي لا يفنى، ومن كان في مدة عمـره في الإيمان والعمل الصالح،

---

(١) الرازي ٣٢/ ٨٥ .

(٢) نفس المصدر / ص٨٨ .

والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر فلا خسر معه، وقد جمع له الخير كله[1]، لأنه عوَّض ذلك النقص في الدنيا بالخيرات، وعمَّر أيام عمره بالأعمال الصالحات، والمؤمنون العاملون تُكتب لهم أجورهم على أعمالهم التي كانوا يعملونها في حال شبابهم وإن عجزوا عنها عند هرمهم[2].

روى ابن عون[3] عن إبراهيم[4] قال: أراد أن الإنسان إذا عُمِّر في الدنيا وهرم لفي نقص وتراجع إلا المؤمنين، فإنهم يكتب لهم أجورهم ومحاسن أعمالهم التي كانوا يعملونها في شبابهم وصحتهم، وهي مثل قوله: ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلإِنْسَانَ فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ إِلَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ**﴾[5].

ووجه آخر في قوله: ﴿**إِنَّ ٱلإِنْسَانَ لَفِى خُسْرٍ**﴾: أن الإنسان مهما كان حاله لا ينفك من وجه من وجوه الخسران، لأن رأس ماله هو عمره، وهو قلما ينفك عن تضييع عمره:

---

(١) ابن عطية ١٦/٣٦١.

(٢) الرازي ٣٢/٨٨.

(٣) هو عبدالله بن عون المزني (تهذيب الكمال للمزي ١٥/٣٩٤).

(٤) هو النخعي.

(٥) البغوي ٤/٥٢٣.

أما من صرف ساعات عمره في المعصية فلا شك في خسرانه، وأما من كان مشغولاً بالمباحات فخسرانه أنه فاته عمل الصالحات التي يبقى له أثرها ونفعها، وأما من كان مشغولاً بالطاعات وشغل أيام عمره بالأعمال الصالحات فيقال: لا طاعة إلا ويمكن الإتيان بأحسن منها، أو إتيانها هي على وجه أكمل وأحسن، وفوات الأعلى وإن فعل الأدنى نقص في الدرجات وهو نوع خسران، فثبت أن الإنسان لا ينفك ألبتة عن نوع خسران[1].

فالعموم حاصل من هذه الوجوه.

ولكن أوضح وجوه الخسران يتبين عند النظر إلى المستثنى وأضداده:

١ ــ فبالنظر إلى ضد الإيمان وهو الكفر فالخسران في الدين من حيث الإيمان يكون بسبب الكفر، وهذا هو أشنع أنواع الخسران.

٢ ــ وباعتبار ضد العمل الصالح وهو العمل الفاسد فالخسران بترك العمل الصالح إخلال بالإسلام.

---

(١) الرازي ٨٧/٣٢ ، وابن عادل الحنبلي (نسخة الأزهر).

٣ ـ وباعتبار ضد التواصي بالحق وهو التلهي بالباطل فهذا أيضاً خسران محقق.

٤ ـ وباعتبار ضد التواصي بالصبر وهو الهلع والجزع فهذا أيضاً خسران. قال تعالى في النوع الأول: ﴿وَمَنْ يكفُرْ بالإِيمَانِ فقَدْ حَبطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِى ٱلآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ﴾[1]، وقال: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ﴾[2]، وقال: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ ٱللَّهِ..﴾[3].

وقال في الخسران بترك العمل الصالح: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ..﴾[4]، وقال: ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَانَ وَلِيّاً مِنْ دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُبِيناً﴾[5].

وأما التواصي بالحق فمعناه الثبات على الحق والدعوة

---

(١) المائدة: ٣.
(٢) الزمر: ٦٥.
(٣) الأنعام: ٣١.
(٤) المؤمنون: ١٠٣.
(٥) النساء: ١١٩.

إليه، والحق هو الدين كله الذي هو الإسلام، قال تعالى : ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلإِسْلَامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ﴾(١).

وأما التواصي بالصبر فقال سبحانه في ضده : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَى حَرْفٍ . .﴾ أي على وجه وهو الرخاء ﴿فإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلآخِرَةِ ذَلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾(٢).

وقيل إن المراد بقوله : ﴿إِنَّ ٱلإِنْسَانَ لَفِى خُسْرٍ﴾ الكافر، بدليل أنه استثنى المؤمنين(٣).

وهو قول ابن عباس من رواية أبي صالح(٤).

وقيل المراد أناس مخصوصون من المشركين : الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن عبدالمطلب بن أسد بن عبدالعزى، والأسود بن يغوث، كانوا يقولون : إن

---

(١) آل عمران ٨٥ .
(٢) الحج : ١١ .
(٣) البغوي ٤/٥٢٣، والقرطبي ٢٠/١٧٩ .
(٤) القرطبي (٢٠/١٧٩).

محمداً لفي خسر، فأقسم تعالى على أنهم هم الذين في خسر بالضد مما يتوهمون.

وهذا قول ابن عباس من رواية الضحاك[١].

وقال مقاتل: نزلت في أبي لهب[٢].

وروي عن ابن عباس: ﴿إِنَّ ٱلإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ يعني أبا جهل بن هشام ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ﴾ ذكر علياً وسلمان[٣].

وعلى القول بأن المراد بالإنسانِ الكافرُ أو أناس مخصوصون من المشركين تكون اللام في «الإنسان» للعهد[٤].

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـٰلِحَـٰتِ..﴾: فإنهم ليسوا في خسران، وهم الذين جمعوا بين الإيمان بالله والعمل الصالح فإنهم في ربح لا في خسر، لأنهم عملوا للآخرة ولم تشغلهم أعمال الدنيا عنها[٥].

---

(١) القرطبي ٢٠/١٧٩.
(٢) الرازي ٣٢/٨٦.
(٣) الدر المنثور ٦/٣٩٢.
(٤) الرازي ٣٢/٨٦.
(٥) البغوي ٤/٥٢٣.

والاستثناء من الإنسان على أن المراد به جنس الإنسان على الصحيح، فيكون متصلاً، ويدخل تحت هذا الاستثناء كل مؤمن ومؤمنة، وعلى أن المراد بالإنسان الكافر فقط يكون منقطعاً[1].

﴿وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ﴾ : قال بعض المفسرين : أي أدوا الفرائض المفترضة عليهم، وقالوا المراد بهم أصحاب رسول الله ﷺ، والصحيح أنه ليس محصوراً في ذلك فإن اللفظ العام لا يخرج عنه أحد ممن يتصف بالإيمان والعمل الصالح[2].

وهذا الاستثناء فيه أمور :

أحدها : أنه تسلية للمؤمن من فوت عمره وشبابه، لأن العمل الصالح قد أوصله إلى ما هو خير من عمره وشبابه.

وثانيها : أنه تنبيه على أن كل ما دعاك إلى طاعة الله فهو الفوز والفلاح وكل ما شغلك عن الله بغيره فهو الخسار والفساد[3].

---

(١) ابن عادل الحنبلي (نسخة الأزهر) والشوكاني ٥/٤٩١ .
(٢) الشوكاني ٥/٤٩١ ، والألوسي ٣٠/٢٢٨ .
(٣) الرازي ٣٢/٩ .

وقد دلت هذه الآية والتي قبلها على أنه لا يسلم من الخسارة إلا من جمع شرطين : الإيمان، والعمل الصالح، فقد علق الاستثناء من الخسارة عليهما، والمعلق على الشرطين مفقود عند فقد أحدهما، فعلمنا بذلك أن من لم يحقق الإيمان والعمل الصالح فهو في خسارة في الدنيا والآخرة.

ولما كان الذين يحققون هذين الشرطين في غاية من القلة وكان الخسار لازماً لمن لم يكن مستجمعاً لهما كان الناجي أقل من الهالك، ثم لو كان الأمر غير ذلك فكان الناجون أكثر لوجب الخوف حتى لا تكون من القلة الخاسرين، فكيف والناجون قليل؟!(1).

وربما احتج بهذه الآية من يقطع بالوعيد لفساق الموحدين، أو يحكم على مرتكب الكبيرة بالكفر فنقول : إن لفظ الخسار هنا عام فلا يلزم منه الكفر، وإنما يقطع بالوعيد بالعذاب لأهل الكفر، أما فساق الموحدين فهم تحت المشيئة المستفادة من قوله : ﴿**وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ**﴾(2) فإن هذه الآية فتحت لهم باباً من أبواب رحمة الله.

---

(1) الرازي ٣٢/٩٠ .

(2) النساء : ٤٨ .

والإيمـان : لغـة التصديق، والمراد به هنا : التصديق بالأركان الستة الواردة في حديث جبريل[1]، فهو هنا متعلق بالأعمال القلبية لأنه ذكر الأعمال الظاهرة التي هي الإسلام بقوله : ﴿**وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ**﴾ والقاعدة أن الإيمان والإسلام إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا، أي أن الإيمان إذا أطلق ولم يقترن به ذكر الإسلام ففي عرف الكتاب والسنة يندرج فيه الإسلام، فيكون معناه : الاعتقاد بالجنان والإقرار باللسان والعمل بالأركان، فالإيمان على هذا قول وعمل واعتقاد.

﴿**وَتَوَاصَوْا بِٱلحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِٱلصَّبْرِ**﴾ : قال الحسن وقتادة : «بالحق» بالقرآن، وقال مقاتل : بالإيمان والتوحيد[2].

وعن الحسن قال : الحق كتاب الله والصبر طاعة الله[3].

وقيل : «وتواصوا بالحق» أي بالأمر الثابت الذي لا يسوغ إنكاره، وهو الخير كله من توحيد الله وطاعته، واتباع

---

(١) متفق عليه: البخاري في الإيمان (الفتح ١ / ١١٤) ومسلم في أول الإيمان أيضاً (١ / ٣٦) وفيه قال: أخبرني عن الإيمان قال: (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره. .) . . .
(٢) البغوي ٤ / ٥٢٣ .
(٣) تفسير عبد الرزاق ٢ / ٣٩٤ .

كتبه ورسله، والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة[1].

﴿وَتَوَاصَوْا بِٱلصَّبْرِ﴾ : أي على أداء الفرائض وإقامة أمر الله. والراجح أن المراد بالحق الدين كله الذي هو الإسلام، يتواصى المؤمنون العاملون بالتمسك به، والدعوة إليه، والثبات عليه، والصبر في سبيله، فما ذكره المفسرون هو من باب التفسير ببعض المعنى.

وقد دلت هذه الآية على أن هذا الأمر ثقيل، وأن المحن تلازمه فلذلك عبر بـ«التواصي»، ثم قال: «تَوَاصَوْا» بصيغة الماضي ولم يقل «يتواصون» بصيغة المضارع لئلا يقع أمراً، لأن الغرض مدحهم بما صدر عنهم في الماضي، وذلك يفيد رغبتهم في الثبات عليه في المستقبل[2].

ودلت على أن هؤلاء الناجين من الخسار والهلاك من خصالهم تكميلهم لأنفسهم بالإيمان والعمل الصالح، ومنها تكميلهم لغيرهم بالدعوة إلى الحق والتواصي به والثبات والصبر عليه[3].

---

(١) الزمخشري ٤/٢٣٢.
(٢) الرازي ٣٢/٩٠.
(٣) الألوسي ٣٠/٢٢٨.

فهؤلاء الناجون بإيمانهم وعملهم الصالح الذين هم أرباب السعادة من حيث أنهم تمسكوا بما يؤديهم إلى الفوز بالثواب والنجاة من العقاب، فهم من شدة محبتهم للطاعة لا يقتصرون على أنفسهم وما يخصهم بل يوصون غيرهم بمثل طريقتهم ليكونوا أيضاً سبباً لطاعات الغير كما ينبغي أن يكون عليه أهل الدين ﴿**يَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قُوآ أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُم نَاراً**﴾[1].

فالتواصي بالحق يدخل فيه حمل النفس على مشقة التكليف في القيام بما يجب، وفي اجتناب ما يحرم، إذ الإقدام على المكروه والإحجام عن المراد كلاهما شاق شديد[2].

وفي «تواصوا» معنى قيامهم بالوصية، وقبولها إذا وجهت إليهم، فهم جمعوا بين المنقبتين[3].

و﴿**الصبر**﴾ : لغة الحبس في ضيق. وكل معانيه مشتقة من هذا المعنى، ومنه سمي الصوم صبراً، لما فيه من معنى حبس النفس عن الطعام والشراب وغيرهما من محظورات

---

(١) التحريم : ٦ .

(٢) الرازي ٣٢/٨٩ .

(٣) القاسمي ١٧/٦٢٥٢ .

الصيام، وتقول: صبرت الدابة إذا حبستها بلا علف، وحبست فلاناً إذا خلفته خلفة لا خروج له منها[1].

والصبر عند العلماء: هو حبس النفس على ما يقتضيه الشرع والعقل أو عن ما يقتضيان حبسها عنه[2].

والصبر لفظ عام، وربما خولف بين أسمائه بحسب اختلاف مواقعه، فإن كان حبس النفس لمصيبة سمي صبراً لا غير، ويضاده الجزع، وإن كان في محاربة سمي شجاعة، ويضاده الجبن، وإن كان في نائبة مضجرة سمي رحابة صدر، ويضاده الضجر، وإن كان في إمساك الكلام سمي كتماناً ويضاده المَذْل، وقد سمى الله تعالى كل ذلك صبراً[3].

والصبر قوة نفسية تدعو النفس إلى احتمال المشقة في العمل الطيب وتهون عليها احتمال المكروه في سبيل الوصول إلى الأغراض الشريفة[4].

وقيل إن المراد بالصبر هنا: عن المعاصي، وعلى الطاعات، وعلى ما يبلو الله به عباده[5].

---

(١) المفردات للراغب / ص٢٧٣ .
(٢) المفردات / ص٢٧٣ .
(٣) نفس المصدر .
(٤) المراغي ٣٠/٢٣٤ .
(٥) الزمخشري ٤/٢٣٢ .

وهو **داخل في الحق**، وكلاهما داخلان في الأعمال الصالحة، والأعمال الصالحة داخلة في الإيمان، والتخصيص في كلٍّ هو لإبراز كمال العناية به، فإن الوصول إلى الحق أسهل من البقاء عليه والصبر معه بالاستقامة والجهاد لأجله، فذاك الذي يظهر به مصداق الإيمان وحقيقته.

وقال بعض المفسرين هي مراتب :

فأولها : مرتبة العبادة التي هي فعل ما يرضي الله تعالى :

وثانيها : مرتبة العبودية التي هي الرضا بما فعل الله تعالى فإن المراد بالصبر ليس مجرد حبس النفس عما نتوق إليه من فعل أو ترك بل هو تلقي ما ورد منه عز وجل بالجميل والرضا به باطناً وظاهراً[1].

وقال آخرون[2] : الصبر على أقسام :

فمنه الصبر لله : أي عن معاصيه وعلى طاعاته لأجل مثوباته وهو للعامة.

والصبر بالله : أي بتأييده وقوته، وهو صبر المنسلخ عن حوله وقوته.

---

(١) الألوسي ٣٠/٢٢٩ .

(٢) الملا على القارى في تفسيره ٤/١٤٨٨ .

والصــبر على الله : أي على حكمــه وهو صبر السالك الذي بريء عن التصرف والاختيار، ويرى أن المتصرف فيه وفي غيره هو الواحد القهار فيصبر على أحكامه مع مكابدة آلامه.

والصبر في الله : وهو لأهل القرب والمشاهدة.

والصبر عن الله : وهو لأهل المحبة، إذا أراد المحبوب فراق المحب وهو أشدها مرارة، ولهذا لما سمعه الشبلي شهق وخر مغشياً عليه، وفي هذا المقام قال من قال :

أريد وصاله ويريد هجري فأتــرك ما أريد لمـا يريد

في ظــلال الســـــــورة :

هذه الســورة كما قال بعض المفسرين[1] رسمت منهجاً كاملاً واضح المعالم، على الناس أن يلتزموا به إذا أرادوا النجاة والفلاح مما هم فيه من حال سيئة، فإن الغالب على بني البشر في مختلف الأزمنة والأمكنة أنهم غارقون في الفساد، سائرون إلى الهـلاك والـدمار فالخسران محيط بهم، وقد أحكم حول أعناقهم طوقه.

---

(١) سيد قطب رحمه الله .

إذا تأملت حال البشرية اليوم وجدت هذه الحقيقة ماثلة للعيان تنذر بعواقب وخيمة، ونهاية مفجعة أليمة . .

لا نمثل بالأمم الوثنية التي مُسخت عقولها عندما انحدرت إلى هذا الدرك باتخاذ آلهة من الحجر أو الشجر أو البقر، أو غير ذلك من الحيوانات والجمادات، فإن الخضوع لمثل هذه الآلهة أوضح دليل على الفساد المريع في عقول هؤلاء وفِطَرِهم، لكن لنا أن نضرب المثل بمن يسميهم القرآن «أهل الكتاب»: اليهود والنصارى: إنهم الطرف الرئيسي في الصراع بين الكفر والإيمان، فما يعتلج في العالم اليوم من مشكلات مدمرة هو بسبب هاتين الملتين، اللتين تقودان العالم نحو الدمار، اليهود المغضوب عليهم، قتلة الأنبياء، ومصدر الفساد والشرور، والنصارى الضالون، الذين هم الروم ذات القرون، كلما هلك منهم قرن أتى قرن، ويقف أمام هؤلاء وأولئك أهل ملة الإسلام، فالصراع باختصار هو بين ملة الإسلام التي تُمثِّل (الحقَّ المُنزَّل) والدين المكُمَّلَ، وبين هاتين الملتين الضالَّتين المُضِلَّتين . .

ونظرة فاحصة لما يمور في العالم اليوم من حروبٍ ومآسٍ، ومصائب وكوارث، وفسادٍ خلقيٍّ واقتصاديٍّ، وظلمٍ

وطغيانٍ، تجد وراءه اليهود والنصارى.

والنـاس كشـأنهم في كل زمـان الغالبيةُ الغالبةُ والسوادُ الأعظمُ منهم واقعون في براثن هؤلاء المفسدين. .

فهم سائرون من ورائهم كالعميان يقودونهم إلى المصير المحتوم، ومما يزيد من فداحة الأمر أن الشهوات والغرائز كلها تحث النـاس على الانـدفـاع في طريق الدمار، والاستسلام لحبائل المفسدين، بينما طريق النجاة محفوفة بالعوائق والمكاره وتكـاليفهـا شاقة، وعبئها ثقيل، فلذلك كثر الهالكون وقلَّ السالكون، فاللهم اجعلنا من القليل.

وهذا يبين عظم شأن هؤلاء القليل الناجين الذين سَمَتْ عقـولُهم وفِطَرُهُم ونفـوسُهُم وعـزائمُهُم عن الاستسـلام لما استسلم له الأكثرون، فسَلِمُوا بذلك من التردِّي في الوهدة التي تردَّى فيها الهالكون.

إن **منهج النجاة** الذي جاء به الإسلام مبني على الأركان الآتية :

أولاً : الإيمان : ومعناه صحة الاعتقاد وسلامة الفكر، ومعناه قوة الأساس ومتانته، فحينئذ يقام الكيان كله عليه دون

خوف أو وجل من أن ينهار به، ومعناه الحصانة التامة من الأوهام والخرافات، والشكوك والشبهات التي تعصف بالإنسان، وتمزق داخله، فالناس المحرومون منه في معيشة ضنك من جراء هذا الحرمان.

وهذا الإيمان: علم وعمل، فتحقيق الإيمان معناه صلاح القوة العلمية، صلاح الأفكار والمعتقدات، وهذا ركن مكين وأساس متين، ومعناه أيضاً صلاح القوة العملية التي ذكرت في هذه السورة بهذا العنوان الجليل «العمل الصالح»، فصلاح الاعتقاد يؤدي إلى صلاح **الأعمال**.

وبالإيمان يحقق الإنسان مكاسب عظيمة: به يتم الاتصال بينه وبين الملأ الأعلى، بل بينه وبين الخالق العظيم سبحانه وتعالى، أليس هذا الوحي المُنزَّل على الرسول ﷺ هو وسيلة الاتصال؟ فإذا بالإنسان وهو متمسك بأهداب هذا الوحي المُنزَّل يسبح في سماوات عالية، وينطلق من سجنه الضيق المحدود فيتصل بالكون كله.

وبالإيمان يتم **تحرير الإنسان** من ربقة العبودية للمخلوق التي أثقلت كاهله ومزقت كرامته، كيف يتعبَّد المخلوقُ لمخلوقٍ مثله ويخضع العبدُ لعبدٍ مثله؟ الجميع خلق الله

وعبيده، خضعـوا له كَرْهـاً، ثم بالإيمان يخضع الإنسان له طوعاً، فتَسْمُوا به عبوديتُهُ لله إلى مقام التكريم، وتنطلق به إلى رحابة الحرية، وترتفع به إلى استعلاء الإيمان، فإذا به يحظى بالعزة الإيمانية ﴿**وَلِلَّهِ ٱلعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ**﴾[1] بينما يتـخـبط الآخــرون في حضـيض الـتصــورات الجــاهلية والارتباطات الأرضية فهم كالأنعام بل أضل سبيلاً.

والإنســان بالإيمان **تستقيم فطرته** وترتاح نفسه ويطمئن قلبـه، كل ذلـك ببركـة «التـوحيد» لأن الإيمان أول أركـانه التوحيد فالمؤمن الموحِّد يتلقى من مصدر واحد، ويتعبد لإله واحد، ويخضع لقوة واحدة، وإلهٌ واحد قهار خيرٌ من أربابٍ متفرقين عاجزين مُزَيَّفين.

إن الإنســان بهذا «التوحيد» يصبح إنساناً سوياً بعدما وضحت العلاقة بينه وبين الخالق، وتبين مقام الألوهية ومقام العبودية على حقيقتهما الناصعة، مما يصل هذه الخليقة الفانية بالحقيقة الباقية في غير تعقيد وبلا وساطة في الطريق، ويودع

---

(١) المنافقون: ٨.

القلبَ نوراً والروحَ طمأنينة، والنفس أُنساً وثقةً، وينفي التردُّدَ والخوفَ والقلقَ والاضطرابَ، كما ينفي الاستكبارَ في الأرض بغير الحق والاستعلاءَ على العباد بالباطل(١).

ومن مكاسب هذا الإيمان **تكريم الإنسان**، فإن النظرة إلى الإنســان من حيث هو أن الله كرمــه وسخـر له ما في السموات والأرض وحمله في البر والبحر ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً**﴾(٢) فأين هذه النظرة التي ارتفعت بالإنسان إلى مقام التكريم من التصورات الجاهلية التي تنحط به إلى درك البهيمية وتَرده إلى أصل حقير، وتفصل بينه وبين الملأ الأعلى، وتنزل به إلى أسفل سافلين: أصله قرد، وهو جملة من النوازع الجنسية.. لا فرق يُذكر بينه وبين البهائم، ومن هنا نفهم سر تشبيه أهل الكفر بالبهائم ﴿**أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ**

---

(١) من قوله «وضحت العلاقة بينه وبين الخالق..» إلى هنا مقتبس من عبارات سيد قطب رحمه الله في الظلال (ص٣٩٦٥)، وكذا باقي الأفكار عن مكاسب الإيمان مع التصرف في العبارات وشيء من الإضافات.

(٢) الإسراء: ٧٠.

أَضَلُّ سَبِيلاً﴾[1] فهل اشتاق الكافر إلى هذا المشبه به وهو ينظر إلى الإنسان هذه النظرة الدونية وينحط بأصله إلى (القردية) .

ومن مكـاسب الإيمان إضافة إلى نظافة المشاعر وصحة الأفكار وسلامة التصورات ، **نموُّ الحاسَّةِ الأخلاقية** ، ونشوءُ رقابةٍ ذاتية ، يُولِّدها الاعتقادُ بأن الله يراه ، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ويُعزِّزُها الاعتقاد باليوم الآخر وبالجزاء والحسـاب، فالجميع إلى الله يُرْجَعـون فيجـزي كلاً بعمله **﴿فَمَن يَّعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَن يَّعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَّرَهُ﴾**[2] .

هذه من مكـاسب الإيمان عندما يحققه الإنسان ويلتزم به ، وعن **حقيقة الإيمان من الناحية العلمية الاصطلاحية** : قال العلماء في تعـريفـه : إنه اعتقادٌ بالجنان وإقرارٌ باللسان وعملٌ بالأركان ، وهذا بمعناه العام ، فهو ليس مجرد تصوراتٍ نظريةٍ ، أو تصديق بالقلب فحسب ، وإلا لكان إبليس مؤمناً ، إذْ لم يكن مُكـذِّباً بألوهيةِ الرب سبحانه وإنما أُتي من فقدان

---

(١) الفرقان : ٤٤ .

(٢) الزلزلة : ٧ ، ٨ .

الانقياد، ولكان اليهود الذين عرفوا صدق نبينا محمد ﷺ وأن ما جاء به هو الحق، كما يعرفون أبناءهم مؤمنين، ولكان هرقل وقد صدَّقَ وعرف واشتاق إلى أن يغسل الأرض تحت قدمي النبي ﷺ مؤمناً، لابد مع التصديق من الاذعان والانقياد والطاعة، وهذه تتحقق بالإقرار باللسان والعمل بالأركان.

وهنا يأتي القسم الثاني الذي يقابل الإيمان بمعناه الخاص، وهو المتعلق بالأعمال الظاهرة: الإسلام.

وهذا ما يدل عليه قوله: ﴿**وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ**﴾: فإن الإيمان يعني الالتزامَ والاستقامةَ، والحركةَ، فهو حقيقةٌ إيجابيةٌ متحركةٌ، ولذلك نجد من أسلوب القرآن أنه لا يذكر الإيمان إلا ويقرنه بالعمل.

لكن كلاً من العمل والاعتقاد يرتبطان **بالعلم**، فالطريق إلى اعتقاد صحيح وعمل صالح مقبول هو العلم، وكل من عَمِلَ بلا علمٍ فإنه يضِلُّ كما ضلَّت النصارى، كما أنه إذا عَلِمَ ولم يعمل صار من أهل الغضب كاليهود، فكما أن العلم بلا عملٍ لا ينفع صاحبه فإن العمل بلا علمٍ لا ينجي صاحبه، لهذا قُيِّدَ العملُ بوصفه بالصلاح، يجب أن يكون العمل صالحاً، ولا يكون صالحاً ما لم يكن موافقاً لشرع الله تعالى،

وخالصاً من الشرك، ولتحقيق الشرط الأول لابد من تَعَلُّمِ الشريعةِ، ولتحقيق الشرط الثاني لابد من تَعَلُّمِ التوحيد.

ومن هنا نعلم كيف ضلَّ كثيرٌ من المسلمين الذين أرادوا سلوك طريق النجاة فبدأوا بالعمل وأهملوا العلم، والله أول ما أَمَرَ نبيَّه أمره بالعلم وهو في غار حراء.

هذا ما يتعلق **بالركن الثاني** من أركان المنهج كما رسمته سورة العصر.

الركن الثالث : الدعوة إلى الدين الحق، ومن عجائب هذه السورة أنها بكلمة «تواصوا» قررت أن أهل هذه الملة ـ ملة الإسلام ـ الذين هم أهل النجاة، يجب أن يحملوا الرسالة إلى الآخرين فبعد أن عرفوا الحق عليهم أن يُبلِّغوه غيرهم دعوةً وتعليماً وإرشاداً، فهم أمة ذات رسالة ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ**..﴾[1]، ﴿**وَلْتَكُن مِّنكُمْ**﴾ أي من مجموعكم ﴿**أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُوْلَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ**﴾[2].

---

(١) آل عمران : ١١٠ .

(٢) آل عمران : ١٠٤ .

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ . . ﴾[1] وبكلمة «تواصوا» قررت سورة العصر أن على أهل ملة الإسلام أن يتعاضدوا ويتكاتفوا ويُكوِّنوا جماعةً واحدةً، بل أمةً واحدةً متماسكة مترابطة، فتواصوا تفيد لغة التفاعلَ والاشتراك في الفعل بين الطرفين.

ثم إن هذه الصيغة تتحدث عنهم بصيغة الجمع بل السورة كلها ﴿آمنوا﴾ ﴿عملوا﴾ ﴿تواصوا﴾، وهكذا معظم الخطاب في القرآن الذي وُجِّهَ إلى هذه الأمة وجه بصيغة الجماعة ؟.

لا يتحقق النجاة بدون الاجتماع على الحق، إنَّ أفراداً مبعثرين متباعدين لايمكن أن يقوموا بالوصية لا لغيرهم ولا في أنفسهم ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ﴾ كوِّنُوا أُمَّةً وإلا خسرتم الصراع.

وبكلمة ﴿تواصوا﴾ قررت السورة أن على هذه الأمة أن تقوم بالدعوة في الداخل والخارج، تتواصى بالحق فيما بينها، وتدعوا إليه غيرها من بني الإنسان.

---

(١) البقرة : ١٤٣ .

الـركن الرابع من المنهج : الصبر والثبات ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ : ففي هذا العالم الذي حكمت السورة على أكثر سكانه من بني الإنسان بالخسران والهلاك والدمار، سيكون حمل رسالة الحق على أهل ملة الإسلام عبئاً ثقيلاً ذا تبعات شاقـة، سيخـوضـون صراعاً مريراً مستمراً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

فلابد من الصبر على إقامة أمر الله مع شدة التكليف، ولابد من الصبر على الدعوة إلى الله مع ثقل الرسالة، ولابد من الصبر على ماقضى الله تعالى، فالناس وأكثرهم أهل خسار ودمار لن يتلقوا الدعوة بالترحاب، بل سيُنْشِبُونَهُ صراعاً شرساً مع الحق وأهله. فلابـد من الصـبر على دعوتهم وتبليغهم، وتعليمهم وإرشادهم، ومناصحتهم، ومجاهدتهم.

وحينئذ وفي غمرة الصراع كلُّ واحدٍ من أهل الحق هو بأمسِّ الحـاجـة إلى معـاضدة إخوانه، وعلى الآخرين القيام بواجب التعاضد والتعاون. لا يجوز إن أردْتَ النجاة أن تتفرج على أخيك وهـو بأمسِّ الحـاجة إلى مؤازرتك ومناصرتك ثم لاتمد له يدك، إذن تهلكان جميعاً.

أليس هذا مما تدل عليه جملة ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾؟ ليس

معنى الصبر أن تَخْذُلَ أخاك أو تُخَذِّلَهُ وتُثَبِّطه عندما يحتدم الصراع مع الخاسرين؟ بل أن تؤازره وتناصره بنصحك وتأييدك.

أثناء **الدعوة** والتبليغ، يكون المهم الأول تعليمَ الناس الدين الحق، فحينئذ على أهل الحق أن يوصى بعضهم بعضاً بالصبر على الأذى والعنت، ومقابلة الإساءة بالإحسان، والعناد بالثبات، والاستفزازَ بالإعراض.

وأثناء **التمكين** وإقامة حكم الله حيث يبلغ أَمْرُ هذا الدين ذُرْوَةَ سنَامِهِ يكون التواصي بالصبر على الجهاد ومنازلة الأعداء، وحينئذ لايُقبلُ من مُخَذِّل أن يقول: لاتنفروا في الحَرِّ. لأنه عَكْسُ الوصيةِ ﴿**وتَواصَوْا بالصَّبْرِ**﴾ ففي هذه الوصية دخل الصبر عن القتال، والصبرُ على القتال.

هذا من قبيل اختلاف المراحل، وليس من قبيل اختلاف الآراء.

إن الجهاد هو ذروة سنام الإسلام، أي به يبلغ العمل الصالح أعلى درجاته، وتصل الدعوة إلى قمة مراحلها، ومعنى ذلك أن الدعوة لابد أن تتدرج تصاعدياً، تبدأ

بالـدعـوة. وتنتهي بمصـادمـة الطاغوت والظلم واستئصال شأفتهما، وإقامة حكم الله في الأرض وبسط سلطان الدين على العالمين.

أمـا أن تظل الدعوة أبد الآبدين حبيسة مرحلة واحدة فهذا معناه أن هناك خللاً في تنفيذ الوصية الإلهية.

المصــــادر

١ ــ **عبد الرزاق** بن همام الصنعاني / ت ٢١١ هـ.
تفسير القرآن / طبع مكتبة الرشد بالرياض ١٤١٠هـ.

٢ ــ **محمد بن جرير الطبري** / ت ٣١٠هـ.
التفسير / طبعة بولاق بمصر ١٣٢٩هـ.

٣ ــ **ابن خالويه** الحسين بن أحمد بن حمدان / ت ٣٧٠هـ.
مختصر في القراءات الشاذة / طبعة جمعية المستشرقين الألمانية.

٤ ــ **الثعلبي** أحمد بن محمد / ت ٤٢٧هـ.
التفسـير المسمى بالكشف والبيان (نسخـة خطية من تركيا / مكتبة محمد أفندي).

٥ ــ **الماوردي** علي بن محمد بن حبيب / ت ٤٥٠هـ.
النكت والعيون / طبعة مكتبة المؤيد بالرياض.

٦ ــ **الزمخشري** محمود بن عمر / ت ٥١٠هـ.
(الكشاف).
المكتبة التجارية بمصر ١٣٥٠هـ.

٧ ــ **البغوي** أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء / ت ٥١٦هـ.
(معالم التنزيل).
دار المعرفة ببيروت ١٤٠٦هـ.

٨ ــ **ابن العربي** محمد بن عبد الله / ت ٥٤٣هـ.
(أحكام القرآن).
الحلبي بمصر ١٣٧٨هـ.

٩ ـ **ابن عطية** أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي / ت ٥٤٦هـ.
(المحرر الوجيز).
طبعة المغرب ١٤١١هـ.

١٠ ـ **ابن الجوزي** أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي / ت ٥٩٧هـ.
(زاد المسير في علم التفسير).
المكتب الإسلامي بدمشق ١٤٠٧هـ.

١١ ـ **فخر الدين الرازي** محمد بن عمر بن الحسن / ت ٦٠٦هـ.
(التفسير الكبير).
طبع عبد الرحمن محمد بمصر.

١٢ ـ **القرطبي** محمد بن أحمد الأنصاري / ت ٦٧١هـ.
(الجامع لأحكام القرآن).
دار الكتب بالقاهرة ١٣٨٧هـ.

١٣ ـ أحمد بن إبراهيم **بن الزبير الثقفي** / ت ٧٠٨هـ.
(البرهان في تناسب سور القرآن).
جامعة الإمام بالرياض ١٤٠٨هـ.

١٤ ـ **الخازن** علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي / ت ٧٢٥هـ.
(تفسيره).
المكتبة التجارية بمصر.

١٥ ـ **أبو حيان** محمد بن يوسف الأندلسي الغرناطي / ت ٧٤٥هـ.
(البحر المحيط).
طبعة السلطان عبد الحفيظ بمصر ١٣٢٨هـ.

١٦ ــ **ابن كثير** عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر / ت ٧٧٤هـ.
(تفسيره).
طبع عبد الشكور فدا بمكة المكرمة ١٣٨٨هـ.

١٧ ــ **البقاعي** أبو الحسن إبراهيم بن عمر / ت ٨٨٥هـ.
(مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور).
مكتبة المعارف بالرياض ١٤٠٨هـ.

١٨ ــ **ابن عادل الحنبلي** عمر بن علي الدمشقي / ت ٨٨٠هـ.
(اللباب في علوم الكتاب).
نسخة خطية بدار الكتب المصرية.

١٩ ــ **جلال الدين السيوطي** عبد الرحمن بن علي / ت ٩١١هـ.
(الدر المنثور في التفسير بالمأثور).
طبعة إيران.
(تناسق الدرر في تناسب السور).
دار الكتاب العربي بدمشق ١٤٠٤هـ.

٢٠ ــ **ابن كمال باشا** شمس الدين أحمد بن سليمان / ت ٩٤٠هـ.
(تفسير سورة العصر).
نسخة خطية.

٢١ ــ **الجمل** سليمان بن عمر العجيلي الشافعي / ت ١٢٠٤هـ.
(الفتوحات الإلهية على الجلالين).
المكتبة التجارية بمصر.

٢٢ ــ **الشوكاني** محمد بن علي / ت ١٢٥٠هـ.
(فتح القدير).
الحلبي بمصر ١٣٨٣هـ.

٢٣ ـ **الألوسي** شهاب الدين محمود الألوسي البغدادي / ت ١٢٧٠هـ.
(روح المعاني).
طبعة المنيرية بمصر.
٢٤ ـ **القاسمي** محمد جمال الدين / ت ١٣٣٢هـ.
(محاسن التأويل).
الحلبي بمصر.
٢٥ ـ **المراغي** أحمد مصطفى / ت ١٣٧١هـ.
(تفسيره).
الحلبي بمصر ١٣٩٤هـ.
٢٦ ـ ابن **سعدي** عبد الرحمن بن ناصر / ت ١٣٧٦هـ.
(تيسير الكريم المنان).
٢٧ ـ **سيد قطب** إبراهيم / ت ١٣٨٧هـ.
(في ظلال القرآن).
دار الشروق ١٣٩٤هـ.
٢٨ ـ **الشنقيطي** محمد الأمين بن محمد المختار / ت ١٣٩٣هـ.
(أضواء البيان).
طبعة الأمير أحمد بن عبد العزيز ١٤٠٣هـ.
٢٩ ـ **محمد الطاهر بن عاشور** / ت ١٣٩٣هـ.
(التحرير والتنوير).
الدار التونسية ١٩٨٤م.

الفهرس

مطبعة المدني
المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة - ت : ٨٢٧٨٥١